الفصل الثالث

أثر الحضارة والترف فى تشبيهات ابن وكيع التنيسى

عاش ابن وكيع التنيسى فى بيئة تنيس فى القرن الرابع الهجرى وعن بيئة تنيس قال المسعودى (تنيس كانت أرضًا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وكانت جنانًا ونخلا وكرمًا وشجرًا وزارع، وكانت فينا مجار على ارتفاع من الأرض، ولم ير الناس بلدًا أحسن من هذه الأرض، وأحسن اتصالا من جنانها وكرومها[1].

وقال صاحب تاريخ تنيس (ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطيور ما لا يكون فى موضع آخر، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفًا وهى السلوى، النقح المملوح والنصطفير، الزرزور، الديسى، القمرى، الفاختة، النواح... ويصل إلى تنيس طير كثير لا يعرف اسمه صغار وكبار.. ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفًا وهى البورى، والبلمو، البرو، اللبب...[2].

وشعر ابن وكيع - كما يقول أستاذنا الدكتور حسين نصار - أصدق صورة وأجملها لبيئة تنيس وكانت تنيس مدينة الربيع والخمر فكان ابنها شاعر الربيع والخمر[3]. قال المقريزى فى خططه:

"وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكة، وبها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا، وكان يصنع فيها للخليفة ثوب، يقال له (البدنة) لا يدخل فيه من الغزل سداه ولحمته غير أوقيتين وينسج باقية

---

(١) خطط المقريزى ١ : ٧٧ .

(٢) معجم البلدان ياقوت ١ : ٨٨ .

(٣) ابن وكيع التنيسى شاعر الزهر والخمر: د/ حسين نصار ص ٥ .

بالذهب صناعة محكمة، لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينا. وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه، وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عينًا غير طراز تنيس ودمياط[1].

وكان ذلك سببًا فى غنى المدينة حتى اشتهرت بذلك.

وترجع شهرة تنيس إلى نسج الثياب حاصة ثياب الشروب وهى ثياب لم يكن يصنع مثلها فى أى بقعة من بقاع الدنيا.

وكان مما يصمع من الأثواب البوقلمون وهو من الحرير المتغير اللون وكان لحمته زاهية حتى قيل يبدو فيه ألوان متعددة فى كل ساعة من ساعات النهار.

وقال ابن النظافة والدمائة والغناء واللذة، وأكثرهم يبيتون سكارى. . . وكان يسكن بمدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة.

وينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ودفايات ومما تلبس النساء ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس، والأبيض منه نسيج بدمياط وما ينسج منه فى مصانع السلطان لا يباع ولا يعطى لأحد، قيل إن ملك فارس أرسل رسله إلى تنيس بعشرين ألف دينار ليشتروا له حله من كسوة السلطان، وقد بقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراؤها[2].

(وبتنيس صناع مختصون بنسج ثياب السلطان وقد نسج عاملعمامة للسلطان، فأمر له بخمسمائة دينار ذهب، ويشهد ناصر خسرو بأنه رأى تلك العمامة وقال إنها تساوى أربعة آلاف دينار[3].

---

(١) خطط المقريزى ١ - ١٧٧.

(٢) ناصر خسرو أنامه ترجمة الخشاب ص ٣٨ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٣) المصدر السابق ص ٣٨.

وقال الكندى "أنه كان ينسج بتنيس ثياب الكتان والديبقى والمقصور والشفاف المعلم والطراز ويبلغ الثوب المقصور منها خمسمائة دينار[١]. وقد عاشت بمصر آنذاك خرافة تقول أنه قد أوفد سلطان الروم رسولا يعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ مدينة تنيس، فلم يقبل السلطان وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون[٢].

وكانت كسوة الكعبة تصنع بتنيس، قال الفاكهى فى كتاب أخبار مكة "رأيت كسوة من القباطى المصرى مكتوبًا عليها" (باسم الله وبركة من الله)، مما أمر به عبيد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله - محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله س ٢٥٩ هـ[٣].

ويقول الدكتور إبراهيم الدسوقى فى كتابه تميم بن المعز شاعر الدولة الفاطمية ما نصه: "فقد اشتهرت مصر فى كل عصوره بالنسيج، وتفوقت فيه تفوقًا عظيمًا ولا سيما عصر الفاطميين الذين عنو بالنسيج عناية فائقة، فنشطت المناسج فى كل ارجاء مصر كتنيس والإسكندرية وشطا ودمياط وديبق والفرما فى الشمال، والبهنسا وديرة وأخميم وأسيوط فى الجنوب.

والدليل على عظم هذه الصناعة مبالغة المؤرخين فى ذكر الضرائب التى كانت تفرض عليها فى أيام تميم نفسه، بل لقد كان لبعض الأمراء مناسج خاصة. ثم أنهم عرفوا باستخدام الخط فى زخرفة النسيج وغيره وتحت تأثير التفوق الذى كان لمصر الفاطمية فى صناعة المنسوجات ذكر عمارة اليمنى متحسرًا تلك الكسا التى كان يوزعها الفاطميون، وذكر معها تنيس فى قوله:

---

(١) على مبارك - الخطط التوفيقية جـ ١٠ ط الأميرية ١٣٠٥ هـ.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

وكسوة العام فى الفصلين قد درست ورث منهـا جـديد عندهـم وبلى

ثم الـطراز بـتنيـس التـى عظـمت منه الصـلات لأهل الأرض والدول[1]

هذا وقد كانت تقـوم بتنيس صناعة السلاح المتخـذ من الصلب وكانت هذه الصناعة تبلغ مبلغ منسوجاتها[2].

فقد كانت تصنع بها آلات الحديد كالمقراض والسكين وغيرها، وقد قال ناصر خـسرو: أنه "رأى بمصر مقـراضًا صنع فى تنيس قيمـته خمسـة دنانير مغـربية يفـتح إذا رفع مسـماره ويقـفل إذا نزل، ويؤكد ذلك ذكـر ابن وكيع لمباضع الجراح فى قوله عن فصل الشتاء:

لا يستلذ جنبه المضاجعا كأنما أفرشته مباضعا

"روى ياقوت أن الأوزاعى رأى بشر بن مالك بتلبط فى المعـيشة فقال: "أراك تطلب الرزق، إلا أدلك على أم مـتعيـش قال وما أم مـتعـيش - قال تنيس - ما لزنها أقطع اليـدين إلا ربته، قال بشر: فلزنها فكسـبت منها أربعة آلاف.

"وناهيك عن مـدينة خراجـهـا فى السنة أكثـر من ثلاثمـائة ألف دينار وسبعمائة ألف درهم"[3].

وشعـر ابن وكـيع معـرض فتى لطبـيعـة تنيس وما كـان يقوم بهـا من صناعات.

---

(١) د/ إبراهيم الدسوقى فى جـاد الرب "تميم بن المعز شاعر الدولة الـفاطمية" مركـز النشر جامعة القاهرة ١٩٩١ ص ٢١١.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ترجمة أبو حديد ص ٣٠٥ م.

(٣) ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ٤١٧ ط السعادة.

(أ) ألفاظ المال والجواهر والمعادة النفيسة وما شابه ذلك فى تشبيهات ابن وكيع:

دارت بعض ألفاظ المال والجواهر والأحجار الكريمة وما شابه ذلك فى شعر ابن وكيع واستخدام الكثير منها فى تشبيهاته وفى ذلك دليل على مدى ما وصلت إليه الحياة فى مدينة تنيس من ترف ونعيم وتحضر وثراء، ومن المعروف أن لهذه الأشياء سلطانًا على الإنسان سواء أكان فقيرًا أم غنيًا.

وقد أثر هذا الجانب على شاعرنا بدليل أنه استحدم هذه الألفاظ أكثر من استخدامه لألفاظ الكتابة برغم كونه شاعرًا وناقدًا ومعدودًا فى أهل العلم، وإن كانت بعض تشبيهاته فى هذا الجانب تقليدية مثل تشبيه الثنايا باللؤلؤ والفم بالعقيق والشارب بالزبرجد كقوله:

شارب من زبرجد وثنايا　　لؤلؤ فوقها فم من عقيق

وقوله:

انظر إلى زيتوننا　　فيه شفاء المهج
مخضرة زبرجد　　مسودة من شبج

وقال:

أما ترى الليل قد ولت عساكره　　وأقبل الصبح فى جيش له لجب
وجد فى آثر الجوزاء يطلبها　　فى الجو ركض هلال دائم الطلب
كصولجان لجبين فى يدى ملك　　أدناه من كرة صيغت من الذهب

وهكذا يمضى ابن وكيع متأثرًا بأستاذه ابن المعتز فى استعمال هذه الألفاظ الدالة على الترف والحضارة مستخدمًا فى ذلك تشبيهات مركبة.

كقوله:

كأن عناقيد الكروم وظلها كواكب در فى سماء زبرجد

وقوله:

ذوائب كـتـان تمايل فى الضـحى على خضـر أغصان من الرى مـيد

كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها مـداهن تبـر ركـبت فى زبرجـد

وكذلك قوله:

بدا مشمش الأشجـار يذكو شهابه على حسن أغصـان من الدوح ميد

حكى وحكت أغصانه فى اخضرارها جـلاجل تـبـرفى قـبـاب زبرجـد

وقال:

بدا مـشمش الأشـجـار فيـها كـأنه يلوح على خـضر الغصـون المواتل

قـباب بمخـضر الرياحـين غشـيت وقـد زينت من عـسجـد بجـلاجل

وقال عن الجلنار:

وجـلـنـار بـهـى ضـرامـة يـتـوقـد

بدا لـنا فـى غـصـون خـضـر من الـرى مـيـد

يحكى فـصـوص عـقـيق فى قـبـة من زبـرجـد

وكما اختلط حديثه عن الأزهار بحـديثة عن الجواهر والأحجار الكريمة والعادن النفيـسة اختلط حديثـه عن الخمر كذلك بتلك الألفـاظ التى تثير فى نفس المتلقى عالمًا خياليًا يحلو للفقير والغنى العيش فيه فنجده يقول عن الخمر

والحباب الذى يعلو الكأس عند مزج الخمر بالماء أو عند صب الخمر فى الكأس:

حبابها جسمه لجين وجسمها شخصه نضار
كأنها تحته كميت عليه من فضة عذار

وقال: وكأنها والكأس ساطعة بها ذوب تحلل فى عقيق جارى

وقال كذلك:

حملت كفه إلى شفتيه كأسه والظلام مرخى الإزار
فالتقى لؤلؤاً حباب وثغر وعقيقان من فم وعقار

وقال:

وخشخاش كأنا منه نفرى قميص زبرجد عن جسم در
كأقداح من البلور صيغت بأغشية من الديباج خضر

وقال:

وكأنها فى الكئوس إذ جليت من عسجد رق لونه وصفا

وقال:

كأن الحباب المستدير بطوقها كواكب در فى سماء عقيق

وقال:

كأنها بأكف القوم إذ جليت ذوب من الذهب الإبريز محلول

وقال: كأنها تحت كميت عليه من فضة لجام

وقال:

وقد شاكلت فى أديم السماء ... نجوم الثريا للحظ المقل

دنانير أعطتكما راحة ... سواد الخضاب بها قد نصل[1]

وقال:

وهز كتانه ذوائبه ... ففيه جهد الصفات تقصير

كأنه بسط سندس بهج ... قد نثرت فوقه دنانير

(ب) واختلطت ألفاظ المال والجواهر والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة عنده بوصف الطبيعة فنجده يذكر بعض الثمار كقوله:

وخشخاش كأنا منه نفرى ... قميص زبرجد عن جسم در

كأقداح من البلور صيغت ... بأغشية من الديباج خضر

وعن النارنج يقول:

فكأنما النارنج فى أغصانه ... أكر خرطن من العقيق الأحمر

وكأن زهر الباقلاء دراهم ... قد ضمخت أوساطها بالعنبر

وكأنما الأترج أكؤوس عسجد ... ولها مقابض من حرير أخضر

ويقول فى وصف روضة:

وروضة تزهر من بنفسج ... كأنها أرض من الفيروزج

يضحك فيها زهر الشقيق ... كأنه مداهن العقيق

مضمنات قطعًا من النسيج ... فأشرقت بين احمرار ودعج

---

(١) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات - على بن ظافر المصرى دار المعارف سنة ١٩٨٣ ص ٣٦.

وقال عن البهار:

كأنه مداهن من عسجد ... قد سمرت فى قضب الزبرجد

وقال عن النارنج:

وانظر إلى النارنج فى بهجته ... يلوح فى أفنان هاتيك الشجر

مثل دنانير نضار أحمر ... أو كعقيق خرطت منه أكر

وعن المنثور:

وانظر إلى المنثور فى ميدانه ... يرنو إلى الناظر من حيث نظر

كجواهر مختلف ألوانه ... أسلمه سلك نظام فانتثر

وقال عن نور الباقلاء:

كأنه مداهن من فضة ... أوساطها بها من المسك أثر

وقال:

وعلا على الأشجار قطر سمائها ... فبدت لعين الناظر المتأمل

تحكى قباب زبرجد قد كللت ... بمنظم من لؤلؤ ومفصل

وعن أزهار الربيع قال:

جواهر لو قد طال فينا بقاؤها ... رأيت بها كل الملوك مختمًا

وقال عن البسر:

كأنما خوصه عليه ... زبرجد مثمر عقيقًا[1]

---

(١) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات - على بن ظافر الأزدى المصرى دار المعارف سنة ١٩٨٣ ص ١١٢.

وقال عنه أيضًا: مكاحل من فضة قد طليت بالذهب

وتختلط ألفاظ المال والجواهر عند ابن وكيع بوصف الطبيعة العلوية، فنجده يقول:

أما ترى الصبح بدا في ثوب ليل خلق

أما ترى جوزاء ه كأنها في الأفق

منطقة من ذهب فوق قباء أزرق

وقال: كأن عناقيد الكروم وظلها كواكب در في سماء زبرجد

وأحيانًا نجده يذكر ألفاظ الجواهر مع ذكره للطبيعة العلوية في ثنايا ذكره للخمر فنجده يقول:

كأن الحباب المستدير بطوقها كواكب در في سماء عقيق

ويقول ابن وكيع:

أما ترى أنجم الدياجي تزهر في جوفها النقى

تحكي لنا لؤلؤًا نثيرًا على بساط بنفسجي

(جـ) ألفاظ الكتابة وما يتعلق بها:

قال ابن وكيع:

صعتري أرق من أرجل النمـ ـل وأذكى من نفحة الزعفران

كسطور كسين نقطًا وشكلا من يدي كاتب ظريف البنان

وقال:

كتبت وقرط شوقي قد عناني وقد بعد اللقاء على التداني

وقال:

خـذهـا بكفى فـاتر الجـفـون　　عـلى خليـج أملس المتـون

أمـواجـه كـعـكن البطور　　ذى زرد كـالزبـرجـد الموضـون

كـسلخ أيم أو كـسلـخ نون[1]

(د) ألفاظ الملابس والستائر والغلائل والمفروشات والمنسوجات عمومًا:

قال ابن وكيع عن الشتاء:

ملابس تعيى الجليد حملا　　كأن ما يحمل منها ثقلا

وقال: تترك مبيض الثياب أرقطًا　　تحكى السعيدى لك المنقطا

قال عن الربيع:

فيه ضروب للنبات الغض　　يحكى لباس الجند يوم العرض

وقال عن الروضة:

قد لبست غلالة زرقاء　　فكايدت بلونها السماء

وقال عن الشمس فى السماء فى نهار الربيع:

رومية خلتها زرقاء　　فى الجيد منها درة بيضاء

وقال:

أمـا تـرى الصـبـح بدا　　فـى ثـوب لـيـل خـلـق

أمـا تـرى جـوزاء　　ه كـأنـهـا فـى الأفق

منـطـقـة مـن ذهـب　　فـوق قـبـاء أزرق

---

(١) فى الرسالة المصرية: كنسيج ميم أو كنسيج نون والنون نون الكتابة أو الحوت العظيم. ص ٦١.

وقال: غلالة باطن منه لجين وظاهره غلالة زعفران

وقال:

أمـــــا تـرى أنجم الـديـاجـى تزهـر فى جـــوفـــهـــا النـقى
تحكى لـنا لـؤلـؤًا نثـــيـــــرًا على بســـاط بـنفـــســـجى

وقال عن البصل الأخضر:

يحكى لعـينيك اخـضـرار قـشـره إذا رمـــــــــاه نـاظـر بـفـكـره
غـلائلا خـضـرًا على جـســوم بـيـض رطـاب مـن بـنات الـروم

وقال:

لا تلـفـــيـن مـــقـــــارنًا من لا يزيـن من الصـــحـــاب
فـــالـثـوب ينفـذ سـبـغـه فـيـمـــا يليـه من الثـيـاب

وقال:

ولـلســـــمـــــاء وشـح مـن النـجـــوم وســـمـط
تحكـى بســـاطًـا أزرقًـــا فـــيـــه من النبـــر نـقط

وقال: وطلع هتكنا عنه أستاره من بعد ما قد كان مستورًا

وقال:

والســرو تثنيـه الرياح لواعـبًـا من فـوق جـدول مـائـه المتـفـجر
كالجنـد فى خضر الملابـس حاولوا أمـرًا فـبين مـقلص ومشـمـر

وقال عن الصيف:

يلصق منه الجسم بالثياب وتعلق الأذيال بالتراب

حتى تراها مثل منديل الغمر فيهن تخطيط كتخطيط الحبر

وقال عن الكتان:

كأنه بسط سندس بهج قد نثرت فوقه دنانير

وقال عن الصيف كذلك:

حتى إذا عنا انقضى نهاره وأرخيت من ليله أستاره

وقال عن ثمار الربيع:

أما ترى أترجه ما أحسنه يختال فى غلائل مبينة

وقال:

حتى إذا الليل بدا فيه من الصبح وخط

وخلت ذا فى جسم ذا حين تعرى وانكشط

غلالة فضية عن جسم زنجى تعط[1]

وقال:

وطلع هتكنا عنه جيب قميصه فيا حسنه من منظر حين هتكا

حكى صدر خود من بنات الروم هزها سماع فشقت عنه ثوبًا ممسكًا

ويرى أستاذنا الدكتور/ إبراهيم الدسوقى جاد الرب أن فى ديوان تميم بن المعز ظاهرة تستوقف النظر، فقد ذهب فى الغزل مذهبًا طريفًا فنظم

(١) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات - على بن ظافر الأزدى المصرى دار المعارف سنة ١٩٨٣ سلسلة ذخائر العرب ٤٥ ص ٥٦.

مقطوعات غزلية على لسان الشقق والستائر والعصائب، كما نظم مقطوعات أخرى على لسان الجوارى وأمر بكتابتها على عصائبهن[1].

ويقول الدكتور إبراهيم الدسوقى أيضًا "لقد عرف الأدب العربى شعرًا كان يكتب على النسيج وغيره ولكن هذا الشعر المكتوب كان يقال على لسان الشاعر المتغزل أو على لسان الجارية التى تتزين بالنسيج أو تلبسه. أما تميم فلم يكفه أن يقلد هذين النوعين فأضاف نوعًا ثالثًا، وهو إنكاق النسيج وإجراء الغزل على لسانه ويستطرد الدكتور الدسوقى قائلا" ولا أعرف لهذا النوع الثالث نظيرًا وكأنما هو انتحاءة غزلية خاصة أملتها عليه البيئة المتفوقة فى صناعة النسيج، الغنية بالشقق والستائر والغلائل والعصائب والمفروشات وغيرها من المنسوجات"[2]. وهو بذلك يعتبر تميم بن المعز متوفقًا فى وصفه لهذه المنسوجات على معاصره ابن وكيع التنيسى.

وقال عن جدول:

إذا صافحته راحة الريح خلتها بتكسيرها إياه ثوبًا مغبنًا

(هـ) ألفاظ الطعام فى شعر ابن وكيع:

قال فى قطعة من خروف:

خروف أظهر الشواء فيه تأنقه فليس له مدانى

لباطنه قميص من لجين تسربل فوقه بقميص تبر

---

(١) تميم بن المعز شاعر الدولة الفاطمية أ. د/ إبراهيم الدسوقى جاد الرب - مركز النشر - جامعة القاهرة سنة ١٩٩١ ص ٢١١.

(٢) المرجع السابق ص ٢١١.

وقال: إذا أردت أن تزار فى غد فلا تغال فى الطعام واقصد

قال عن الرقاق:

ابعث فخذ عشراً من الرقاق تلدها نواظر الأحداق

تكاد مما رق من خرشائها تشف للأعين من صفائها

فى صورة البدور أو مثل جامات من البلور

وقال عن الخرشف المشوى:

خروف أظهر الشواء فيه تأنفه فليس له مدانى

غلالة باطن منه لجين وظاهره غلالة زعفران

وقال عن وجبة الرقاق:

فاعمد إلى مدور من البصل فإنه أكبر أعوان العمل

يحكى لعينيك اخضرار قشره إذا رماه ناظر بفكره

غلائلا خضراً على جسوم بيض رطاب من بنات الروم

حتى إذا أحكمته تقطيعًا وقلت قد جودته صنيعًا

خلطته باللحم خلطًا جيداً ولم تزل تخلطه مرددًا

حتى إذا أنت أجدت فعله ثم جمعت فى الرقاق شمله

صيرته يا ذا العلا السنيه شابورة ليست لها سمية

ثمت أغل الشبرق المقشرا من فوقه حتى تراه أحمرا[1]

مكتسيًا حلته الخمريه من بعد ما عهدتها فضية

(١) الشبرق: نبات ثمرته شائكة صغيرة الحجم حمراء - ابن وكيع التنيسى شاعر الزهر والخمر ص ٩٥.

ومما ورد فى كتاب غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى بن ظافر الأزدى المصرى قول ابن وكيع:

بدا لنا الراى الذى تلذ عينى منظره
فى قمص فضية أذيالها معصفره
عوضه القالى بها غلائلا مزعفره
وافى به فيما رأته العين حتى لم تره

(و) ألفاظ تتعلق بالغناء والقيان والرقص وأدوات الموسيقى:

كان الغناء مرتبطًا بالحضارة والترف على مر العصور وكذلك ما يتعلق بالغناء من أدوات الموسيقى والرقص ونجد ذلك مرسومًا ومسجلا على الآثار الفرعونية من معابد ومقابر ملكية. وعاش ابن وكيع فى مصر فى مدينة تنيس التى عرفت بالحضارة والترف فى فترة ازدهار الدولة العباسية التى ازدهرت فيها فنون الشعر والغناء وكل ما يتعلق بالفنون القولية من خطابة ونثر من مختلف الأنماط وكذلك النقد الأدبى وغير ذلك من فنون القول وانعكس ذلك كله أو انتقل إلى مصر وخاصة المناطق الحضارية فيها وقد عاصر ابن وكيع هذه الفترة المزدهرة إذ توفى فى تنيس ٣٩٣ هـ أى أواخر القرن الرابع الهجرى وكان لفن الغناء تأثير واضح على كثير من جوانب الحياة والمجتمع فى تلك البيئات المتحضرة مثل بيئة تنيس ومن ثم دارت ألفاظ الغناء ومتعلقاته فى أشعار الشعراء أبناء تلك البيئات المترفة وكثر الحديث عن القيان والمغنيات وتسللت بعض الألفاظ المتعلقة بالموسيقى والغناء إلى شعر ابن وكيع وبالتالى إلى بعض تشبيهاته مما يدل على تأثره بها فقد ذكر الطرب فى قوله:

طربت نفسى إليه وإلى طيب اقترابه
طرب الشيخ إذا ذكـ ـر أيام شبابه

وقال:

مع مسمع حلفت له أوتاره أن لا تنافر رنة المزمار
فطن يحرك كل عضو ساكن تحريكه لسواكن الأوتار

وقال عن الربيع:

فيه تظل الطير فى ترنم حاذقة باللحن لم تعلم
غناؤها ذو عجمة لا يفهمه سامعه وهو على ذا يغرمه
من كل دبسى له رنين وكل قمرى له حنين

وقال:

وانظر إلى الأطيار فى أرجائه إذا دعا الشاكل منها وصفر
كأنها تصفر فى رياضها سرب قيان فوق بسط من حبر

وقال:

وجاء فصل الربيع ملتمسًا أن ينطق البم فيه والزبر[1]

وعن الربيع قال:

وتغردت أطياره فحكت لنا نغمات معبد فى الثقيل الأول
من كل صافية الصفير إذا دعت أغنتك عن صنج هناك وجلجل

(١) البم: الوتر من أوتار المزهر، الزير: الوتر الرقيق من أوتار المزهر ص ١٢٧ نقلا عن كتاب غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات.

وعن استمتاعه بالغناء قال مقسما:

وسماع مستطاب جاء فى لفظ مصيب
ما سوى الراح لداء الـ ـهم عندى من طبيب

وقال:

شدو إذا الحلماء زار حلومهم باعوا بطيب السخف كل وقار
والشدو أحسنه الذى لم يستمع إلا أطار العقل كل مطار

وقال:

واشرب عقارًا طال فينا كونها يصفر من خوف المزاج لونها
من كف ظبى من بنى النصارى ألبابها فى حسنه حيارى
إذا بدا جماله لذى النظر قال تعالى ما هذا بشر
تزينه أحشاء كشح طاوية وسره محشوة بالغالية
لا سيما مع مسمع وزامر قد سلما من وحشة التنافر

وقال:

لا لائمًا يعذلنى فى طربى حسبك قد أكثرت من هذا الهذر

وقال:

أسنى الأمانى كلها وأجل منها ما ينال
كأس ومسمعة وإخـ ـوان تحادثهم ومال

وقال:

وعندنا شادن غرير ... فى لحظ أجفانه سقام

للحسن قدامه جيوش ... للصبر قدامها انهزام

يخف فى حبه التصابى ... كمثل ما يثقل الملام

ذا العيش فأفطن له وبادر ... من قبل أن يفطن الحمام

وانعم فعام السرور عندى ... يوم ويوم الهموم عام

وقال:

وإن أحببت مسمعه أتتنا ... محذفة بأصناف الأغانى

تطلق هم سامعها ثلاثًا ... بتحرك المثالث والمثانى

(ز) ألفاظ تتعلق بالعطور وأدوات الزينة:

قال: ابن وكيع:

وطلع هتكنا عنه أستاره ... من بعد ما قد كان مستوراً

كأنه لما بدا ضاحكًا ... فى العين تشبيهًا وتقديراً

درج من الصندل قد أودعت ... فيه يد العطار كافورا

وقال:

كأن آذريونها ... أسوده وأحمره

سحيق مسك مودع ... فى خرق معصفره

وقال:

فاشرب معتقة كأن نسيمها ... مسك تضوعه يد العطار

وقال: خليلى ما للآس يعبق نشره إذا هب أنفاس الرياح العواطر

وقال: وكأن زهر الباقلاء دراهم قد ضمخت أوساطها بالعنبر

وقال عن روضة:

يضحك فيها زهر الشقيق كأنه مداهن العقيق

وقال عن البهار:

وارم بعينيك إلى النهار فإنه من أحسن الأنوار

كأنه مداهن من عسجد قد سمرت فى قضب الزبرجد

وقال عن نور الباقلاء:

كأنه مداهن من فضة أوساطها بها من المسك أثر

وقال: والجو فى حلة ممسكة قد طرزتها البروق بالذهب

وقال:

شقيقة جاءتك من روضة يقصر عنها كل مشموم

سوادها فى صبغ محمرها كشامة فى خد ملطوم

وقال عن نور الكتان:

كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها مداهن تبر ركبت فى زبرجد

وقال مقسمًا: ومضحك منك لؤلؤى ممتزج مسكه بخمر

وقال: فاسقنى من قهوة مسكية فى رياض عنبرك النفس

وقال: خلع الغمام على اخضرار سمائه خلعًا فبين ممسك ومصندل

وقال: صعترى أرق من أجل النمـ ـل وأذكى من نفحة الزعفران

(ح) ألفاظ بعض أدوات الزينة:

قال ابن وكيع:

أمـا ترى النخل طارحًـا بلحًـا جـاء بشـيـرًا بدولة الرطب

كـأنه والعـيـون تنظره إذا بدا زهره على القـضـيب

مكـاحـل من زمـرد خرطت مقمعات الرءوس بالذهب

وقال عن نور الكتان:

كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها مداهن تبر ركبت فى زبرجد

وقال عن الخمر: كأنها تحته كميت عليه من فضة عذار

وقال: رومية حلتها زرقاء فى الجيد منها درة بيضاء

وقال عن طيور الربيع:

تبصره منه على الحيزوم كمثل عقد سبج منظوم

وقال عن روضة:

يضحك فيها زهر الشقيق كأنه مداهن العقيق

وقال عن البهار:

كأنه مداهن من عسجد قد سمرت فى قضب الزبرجد

وقال:

وانظر إلى المنثور فى ميدانه يرنو إلى الناظر من حيث نظر

كجواهر مختلف ألوانه أسلمه سلك نظام فانتثر

وعن نور الباقلاء:

كـأنه مـداهـن من فـضـة ... أوسـاطهـا بهـا من المسك أثر
كـأنهـا سـوالف من خـرد ... قـد زينـت بياضـهـا سـود الطرر

وقال:

أمـا تـرى أنجم الـديـاجـى ... تزهـر فى جـوفـهـا النـقى
تحكى لنا لـؤلـؤاً نثـيـرًا ... على بسـاط بنفـسـجى

وقال:

كأن أوراق زهر للباقلاء بهية ... خواتم من لجين فصوصها حبشية

وقال:

وقـد حكى غـديره ... فى زهره حـين اغـتـمط[1]
مـرآة جـال مـاهـر ... مـوضـوعـة فـوق نمط

وقال:

لى نـحـو ورد البـاقـلاء ... إدمـان لحظ ولـهـج
كـأنما مـبـيـضـه ... يـلـوح فـى ذلـك الـدعـج
خـواتم من فـضـة ... فـيـها فـصـوص من سبج

وقال:

ولـلسـمـاء وشـح ... من الـنجـوم وسـمط
تحكى بسـاطًا أزرقًـا ... فـيـه من الـنبـر نـقط

(١) اغتمط: اختفى، والنمط: البساط غرائب التنبيهات - ص ٦٧.

وقال عن البسر: مكاحل من فضة قد طليت بالذهب

وقال عن زهر الباقلاء:

كأنما مبيضه يلوح في ذاك الدعج

خواتم من فضة فيها فصوص من سبج

وقال عن النرجس:

كأن أصفره في وسط أبيضه قراضة أودعت أحشاء بلور

(ط) موسيقى الشعر عند ابن وكيع:

تقوم الموسيقى في الشعر العربي على عنصرين:

الأول: يتعلق بنظام توالي المقاطع الصوتية في البيت الشعري وهو ما يعرف بعلم (العروض)، وأساس هذا العلم أساس كمي وهو ثلاثة أنواع:

أ - نوع "قصر يتألف من حركة واحدة مثل دَ أو... دِ أو.... دُ.

ب - نوع متوسط وله صوتان: حركة مد أو إشباع مثل (دا)... أو (دو) أو (دي).. أو حركة ساكن مثل دنْ.

جـ - نوع طويل: وهو مقطع يتألف من حركتين وساكن كقول ابن وكيع: حتى إذا الليل بدا فيه من الصبح وخط

وحركة وساكنين وهذا لا يوجد إلا في حالات الوقف وصورته غالبًا هي القافية المقيدة - أما العنصر الثاني من عناصر موسيقى الشعر فيتعلق بالأصوات التي يتألف منها الشطر الشعري وطبيعة كل صوت وهي تأخذ الحالات الآتية:

أولا: عدد ما في الشطر من حروف مد صائته وكلما اشتمل الشطر

على عدد معقول من حروف المد حسنت موسيقاه لأن تجاوز الحد المعقول والمبالغة فى عددها تفسد الموسيقى.

ثانيًا: تكرار الحرف الواحد من الحروف الصحاح عدة مرات فى البيت بشرط ألا يجاوز هذا التكرار النسبة المعقولة أيضًا ولهذا علق الصاحب بن عباد على المتنبى حين قال:

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

بقوله: "ما له قلقل الله أحشاءه وهذه القافات الباردة[1]". ولا يكتسب التكرار فى الإيقاع صفته الجمالية إلا بإحباط التوقع الذى يخلقه التكرار[2].

* واختص الشعراء اليونان الملحمة بوزن خاص هو السداسى الذى لا يستخدم فى غير الملحمة. أما الشعراء العرب فكانوا يفاضلون بين البحور وبعضها البعض وفقًا للموضوع أو الغرض الذى يتناوله الشاعر، ففضلوا استخدام بعض البحور فى الموضوعات الجلية كالفخر والحماسة والرثاء وفضلوا بحورًا أخرى فى الموضوعات المجميلة كوصف الطبيعة والغزل مما يوجب عمل إحصاء للبحور التى استخدمها الشاعر لنرة أيها أكثر استخدامًا وأيها أقل عنده وأى البحور أهملها الشاعر فيما بين أيدينا من شعره. ومن الطريف أن الإحصاء أظهرت لنا قلة استخدامه لبحر المنسرح وهو بحر مقترن بالغناء منذ العصر الأموى وهذا البحر جميل الإيقاع إلا أنه متعذر جدًا على الشعراء حتى أن كثيرًا من الدواوين القديمة والحديثة يكاد يخلوا منه.

استعمل الشاعر البحور المجزوءة فى ثمانية وعشرين موضعًا واستعماله للمجوزءات سعتبر دلالة على الذوق المتحضر لأنها يسهل غناؤها.

---

(١) مقالة لأحمد سويلم مجلة القاهرة العدد ١٠٩ (١٥ أكتوبر ١٩٩٠)

(٢) مجلة العربى فبراير ٢٠٠١ م العدد رقم ٥٠٧ = مقالة د/ جابر عصفور [تكرار التشبيه] ص ٨٨ - ٩٣.

- استخدم الشاعر بحر البسيط فى أربعة عشر موضعًا.

ورد مهـا (مخلع البـسيط) فى ثمانيـة مواضع وهو بحـر اتخذه الأدب الشعـبى قالبًـا موسـيقيً له وخـاصة (الموال) لثـراء هذا البحـر بإمكانات المد ولإيقاعاته الفضفاضة وهو بحر اسـتعمله الشعراء فى الشع العمودى بكثرة فى أشعارهم ويأتى هذا البحـر فى المرتبة الثانية لشيوع استعـماله عندهم بعد بحر الطويل.

- وبالنسبـة لبحر الوافر نجد أن الشـاعر كان مقـلا من استخدامـه فقد استخدمه خمس مرات منها حالة واحدة فيها مجزوءًا ويمكن إرجاع ذلك إلى ثقافـة الشاعر الناقـد ابن وكيع الذى أسهم بكتـاى (المنصف) فى النقد الأدبى ذلك الكتـاب الذى بين سعـة ثقافـة ابن وكيع حـيث رد سرقـات المتنبى إلى مصادرها فى التراث الشعرى وربما قلل من هذا البحر كان ذلك تأثرًا بالشعراء القدامى من العصـر الجاهلى وأولئك الذين أعجب الشاعر بهم أيمـا إعجاب فتابعهم فى قلة استخدامهم لهذا البحر كما فعل فى قلة استخدام بحر المنسرح فقد استـخدمه ست مرات ويؤكد تأثره بالجاهلين قـوله فى كتابه (المنصف فى الدلالة على سـرقـات المتنبى) "إن مرور الأيـام أنفد الكلام فلـم يبق المتقـدم للمتأخر فضلا إلا سبق إليه واستـولى عليه" ويعتبر ابن وكيع من أسبق النقاد إلى إدخال السرقـات ضمن البديع فقـد قدم لكتابه بمقدمـة طويلة عن البديع تستغرق تسعًا وثلاثين صفحة فى المخطوط "(١).

- بحر الطويل فقد استخدمه الشاعر اثنتى عشرة مرة:

وقيل "يسمى الطويل طويلا، لأنه أتم البحـور استعمالا، إذا لا يدخله جزء ولا شطر ولا نهك، وقيل لأنه أكثر البـحور حروفًا لأنه إذا صرع فكانت

(١) كتاب تاريخ النقـد العربى فى القرن الرابع الهجرى د/ محـمد زغلول سلام دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م. ص ٢١٨.

عروضه الأولى مع ضربها الأول (مـفاعيلن) تامة غير مقبـوضة - كان ثمانية وأربعين حرفًـا، ولا نظير له فى ذلك" ولعل بحر الطويل يكون أشـهر بحور الشعر قـاطبة عند شعراء الـعصر الجاهلى والشـعر العمودى عامـة وقد نوه به ذلك صفى الدين الحلى حين ذكره منبهًا إلى اسمه وأجزائه فى قوله:

طويل له دون البحور فضائل فعولن مفاعيلن فعول مفاعل

- أما بحر الرجز فقد قل فى شعر القـدماء فى العصر الجاهلى باستثناء الحماسيات أثناء الحروب وكثر فى العصـر الأموى لسهولته وعذوبته ولاتساعه وسماحة بالتصرف الكثير فيه لأنه يجوز حذف حرفين من كل جزء فيه فتصبح (مستفـعلن) (متعلن)، ولكثرة دخول العلل والزحافـات والشطر والنهك فيه، ولذلك سمى (حمار الشعراء) ولعل هذا البحر حمار الشعراء الجدد أيضًا فهو وسيلتهم المفضلة لنظم شعرهم الحر ولذلك نجد ابن وكيع مكثرًا من استخدامه حيث استـخدمه تامًا ثمانى مـرات ومجزوءًا إحدى عـشرة مرة وبذلك يكون بحر الرجز من أكثر البحور شيوعًا عند الشاعر.

وإذا استـعمل الشـاعر البـحر مجـزءًا فإنه يناسب الغنـاء أيا كان ذلك البحر.

- أما بحر الكامل فقـد استخدمه الشاعر ست عشـرة مرة تامًا وخمس مرات مجزوءًا وهو بحر يسير جدا ومـحبب لدى الشعراء البادئون ومنه معلقة عنترة بن شداد.

وسمى هذا البـحر بالكامل لكماله فى الحـركات فالبـيت التام منه على ثلاثين حركة وقـيل لأن أضربه زادت عن أضرب غيره من البحـور فهى تسعة أضرب.

- أما بحر السريع فقد استعمله الشاعر ثمانى مرات.

- وبحر المجتث ورد عند الشاعر سبع مرات.

وهو بحر قصير يسير على الشعراء.

- أما بحر الخفيف فقد ورد عند الشاعر عشر مرات تامًا وثلاث مرات مجزوءًا وهو من أكثر البحور ذوات التفعيلتين استعمالا فى الشعر الجاهلى والعمودى بصفة عامة بعد بحر البسيط.

- أما بحر المتقارب فقد استعمله الشاعر مرة واحدة تامًا وأربع مرات مجزوءًا وسمى هذا البحر بالمتقارب لتقارب أسبابه من أوتاده لأن بين كل وتدين فيه سببًا، أو لتقارب أجزائه أى تماثلها أو لعدم طولها، لأنها خماسية وقد استعمله الشعراء فى العصر الجاهلى كثيرًا وفى الشعر العمودى عمومًا.

- أما بحر الرمل فقد استعمله الشاعر تامًا ثلاث مرات ومجزوءًا ثلاث مرات أيضًا؛ وقد سمى بالرمل لسرعة النطق به لتتابع (فاعلاتن) فيه لأن الرمل يطلق فى اللغة على نوع من السير السريع، وقيل (سمى كذلك تشبيهًا له برمل الحصير، أى نسجه لانتظام أسبابه من أوتاده"[1] وهو بحر محبب لدى الشعراء تامًا أو مجزوءًا.

أما البحور التى أهملها الشاعر فيما بين أيدينا من شعره فهى:

١ - المتدارك. ٢ - الهزج. ٣ - المديد.

٤ - المضارع. ٥ - المقتضب.

- والمتدارك بحر ينسب لأبى الحسن الأخفش

المشهور باسم الأخفش الأوسط فهو غير موجود فيما استخرجه الخليل من بحور الشعر.

- وبحر المديد صعب جدًا على الشعراء وربما خلت منه دواوين بعضهم

---

(١) العروض الجديد أوزان الشعر الحر وقوافيه د/ محمد على السمان دار المعارف ١٩٨٣ ص ٧٧.

وإذا تجاسر شاعر لا يحسه إحساسًا كاملا تأتى فى قصيدته أبيات من بحر الخفيف هذا إذا كان البحر مكتمل التفعيلات وبإحصاء البحور التى وردت عند الشاعر تبين الآتى:

* جملة البحور المجوزءة بالإضافة إلى البحور التامة = ٨٨ + ٢٨ = ١١٦ ونسبة البحور المجزوءة المئوية = ١٣٧٩٣١٠٣ , ٢٤٪ نسبة البحور التامة = ٨٦٢٠٦٨٩٧ , ٧٥٪

أما البحور التى أهملها ابن وكيع فى ما بين أيدينا من شعره فهى الآتى

١ - المديد. ٢ - الهزج. ٣ - المضارع.

٤- المقتضب. ٥ - المتدارك.

نسبة البحور المهملة إلى المستعملة هى: ٥ من ١٦ بحرًا ٣١,٢٥٪.

(ى) استخدام ابن وكيع للقوافى: هناك حروف مهملة عند الشاعر وهى:

ت - ث - خ - ذ - ز - ص - ض - ظ - غ - و وجملتها أحد عشر حرفًا أى أنه استعمل سبعة عشر حرفًا وأهمل أحد عشر حرف من جملة ثمانية وعشرين حرفًا.

هى حروف الهجاء: ومن المعروف أن حرف الروى هو الحرف الذى تبنى عليه القصيدة فيقال لامية أو دالية، وهناك حروفًا مستثناه هى (الألف والواو والياء والهاء) فإن قابلنا أحد هذه الحروف فى أواخر الأبيات فتعتبر القافية حسب الحرف الساكن قبلها، أى ننظر إلى آخر حرف إن كان واحدًا مما سبق تتجاوزه إلى الذى قبله ونجعله رويًا كقول زهير.

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواجله

فالقافية هى من آخر ساكن فى البيت إلى أقرب متحرك يليه ساكن

لم يستعمل الشاعر جميع الحروف الأبجدية فى قوافيه فقد ترك حروفًا منها الضاد والطاء والغين والواو وتم عمل إحصائية بهذه الحروف المهملة تذييلا لإحصائية بالحرف المستعملة.

والحروف التى تركها ابن وكيع ولم يستعملها فى الروى حروف ثقيلة قليلة الاستعمال فى الشعر العربى عمومًا.

وابن وكيع كان يستعمل الحروف ذات القوى الفخم فى الموضوعات الجليلة فهو على علم بالقوافى ووظيفتها فى الشعر فهى ليست تكرارًا صوتيًا فحسب ولكنها تؤدى وظيفة عضوية فى موسيقى القصيدة عنده يقول (يورى لوتمان) فى كتابه (تحليل النص الشعرى).

أن وقع القافية فى نفسية المتلقى يرتبط بحظها من المباغتة أو عدم التوقع وهذا يعنى أنها ذات طابع دلالى أكثر مما هى ذات طابع نطقى أو صوتى، وليس من الصعب الاقتناع بهذه الحقيقة إذا قارنا بين القوافى التى تعتمد على التكرار لفظًا ومعنى والقوافى التى تشترك لفظًا وتختلف معنى لأن التطابق الإيقاعى والصوتى فى الحالتين واحد غير أن اختلاف المعانى بل وانقطاع ما بينها فى حالة المشترك اللفظى، يجعل القافية تبدو أكثر غنى، أما فى حالة تكرار القوافى لفظًا فإنها تترك فى النفس انطباعًا ضئيلا بل لا يكاد يعترف بها قوافى على الإطلاق[1].

(١) تحليل النص الشعرى لبنية القصيدة - يورى لوتمان، ترجمة د/ محمد فتوح أحمد [دار المعارف] ١٩٩٥ م ص ٩٢، ٩٣.